بحوث ودراسات

العقيدة الدينية وأثرها في منهج التفكير السياسي للولايات المتحدة الامريكية

الاستاذ الدكتور
عبد القادر محمد فهمي (*)

تقديم:

يبدو من الصعوبة بمكان، ولاغراض علمية موضوعية، تحليل السلوك السياسي لاية دولة بمعزل عن مكونات بناءها الفكرية. فالفعل السياسي لا يتأتى من فراغ فكري، ذلك ان هذا الفعل، وبغض النظر عن ما اذا كان داخلياً او خارجياً، لا ترتسم معالمه الا وفق معطيات فكرية-ايديولوجية، سواء أكان ذلك في سياق التعامل مع الظواهر او في اطار تحديد ملامح الوحدة الدولية ذاتها والناتج عنها ذلك السلوك. بمعنى ان السلوك السياسي لاية دولة ما هو في الحقيقة الا انعكاس لمضمون حزمه من الافكار والمبادئ تؤمن بها وتسعى الى ترجمتها على ارض الواقع في اطار تعاملها مع الآخرين.

وبقدر تعلق الامر بالولايات المتحدة فأنها لا تخرج عن هذه القاعدة، اذ سيكون للعقيدة الدينية-الكالفينية، والتي جاء بها المهاجرون الاوائل الى ارضها، دور كبير في بلور قاعدة فكرية-سياسية اسهمت، وعلى نحو واضح، في صياغة نمط حياة الشعب الامريكي وطريقة تعامله مع غيره وخصوصاً الدور الفاعل الذي لعبته المؤسسات والنخب الفكرية والسياسية الحاكمة فيها وعبر مرحلة تاريخية امتدت منذ نشأتها وحتى وقتنا الحاضر.

اولاً : المرتكزات الفكرية للعقيدة الدينية الحاكمة في الولايات المتحدة الامريكية:

حمل المهاجرون الجدد، الذين استوطنوا الارض الجديدة منذ بداية القرن السابع عشر، العقيدة الدينية البروتستاتينية الكالفينية التي كانوا يؤمنون بها بهدف تطبيقها في بلد جديد ومجتمع بكر.

وهي العقيدة التي سيكون لها شأن لا ينازع في زرع قيم وافكار مؤثرة ليس فقط في صياغة الشخصية الامريكية على الصعيد الاجتماعي، انما في صياغة العقل الامريكي ومنهج التفكير السياسي الرسمي في السياسة الخارجية والعلاقات الدولية.

(*) استـــاذ / كلية العلوم السياسية-جامعة بغداد

وترى العقيدة الدينية البروتستاتينية الكالفينية ان الدين هو الضمان الوحيد للفضائل القومية التي تسمح بالنجاح الدنيوي. وان الحياة الآخروية هي امتداد للحاضر، وان الايمان هو الذي ينقذ الانسان فيها وهو نتاج عمله الدنيوي. كما تذهب هذه العقيدة الى اعتبار ان الايمان هو الذي ينقذ الانسان دائماً، وهو الذي يقوده الى الخلاص من كل خطيئة، ومن يكون نصيبهم الخلاص ليسوا كل الناس، انما فقط اولئك الذين يتميزون بايمانهم بالله. فالايمان بالله هو طريق الخلاص، وهو القادر على خلق عالم بلا خطيئة. وهنا يكون الايمان بمثابة المعيار المميز بين الخير والشر، بين الانسان الصالح والانسان السيء الذي لا يفقد احترام الآخرين فحسب، انما ليس له مكان بينهم. فالايمان هو اساس الفضيلة، والفضيلة هي السبيل الوحيد الى الخلاص والفوز بالعالم الآخر[1]. وتربط العقيدة الدينية البروتستانتية الكالفينية مسألة الايمان بالعمل. فالايمان لا قيمة له، او انه لا يكتمل، ما لم يتحد مع العمل، ذلك اننا لا نعيش في هذا العالم الا لكي نستحق العالم الآخر. وهذا الاستحقاق لا يأتي الا عن طريق العمل النافع الذي يحقق الذات الانسانية وينعم عليها بالخير.

وهكذا، سيتعايش الايمان والعمل على نحو ثابت لكي يقود المواقف الدينية والاجتماعية. ان الطهرانية (التي هي جوهر العقيدة الدينية البروتستانتية الكالفية) هي دين الفعل والجهد والعمل المنتج داخل الجماعة. والعمل المرفوع الى مصاف الفضيلة يحكم عليه وفقاً لنتائجه وبالطريقة البراغماتية. ولن يكون النجاح الاجتماعي وكسب الاملاك والخيرات والثروات سوى مكافأة وتجسيد مادي للفضيلة. والمال والثراء حينما يمثلان العمل ويرمز ان للنجاح انما يشهدان على قيمتنا الاجتماعية والدينية. وعندئذ تغدو الثروة علامة التقدير المشروع في المجتمع، كما ان الثراء قابل، في نفس الوقت، لان يكون علامة الاصطفاء الالهي.

مثل هذا الاعتقاد الديني بقدر ما يكون محفزاً للعمل ودافعاً للكسب والثراء، فأنه يقدم تفسيراً لعبادة الثروة والنجاح المادي التي سادت وما تزال تسود الولايات المتحدة. ووفق منطق العقيدة الدينية الكالفينية تصبح الثروة وامتلاكها هدفين متلازمين، وعلى الاغنياء ان، يحافظوا على انجازهم لانهما، أي الثروة والمال، يدخلان كما يقول (توكفيل) في صلب بناء العقيدة الدينية التي بني عليها المجتمع الامريكي. اذ وفق هذه العقيدة الدينية، ان الناس وهم يسعون وراء الحصول على المال والثروة، انما يسعون لمرضاة الله لآخرتهم بسبب عملهم وجهودهم، ويجرون وراء السعادة والحرية لدنياهم. اما الفقراء، فأن الاغنياء غير ملزمين بالبحث عن اسباب فقرهم واكتشاف سبل القضاء عليها. ذلك ان الغنى والفقر مسألة قدرية الهية فالاغنياء كتب عليهم العمل والمثابرة والجد، في حين كتب على الفقراء التقاعس والكسل. وكل ما يفعله الاغنياء للفقراء هو تقديم المساعدات والمعونات لهم، دون الحاجة حتى الى وضع البرامج الحكومية

والميزانيات المرصودة لذلك. (وهو هو منهج بوش الابن المحافظ دينياً والمجدد في معالجته للمسألة الاجتماعية).

ويرى الطهرانيون ان لابد من محاربة الشر وجعل الخير ينتصر عليه، وان تأخذ هذه العملية بعدها الشمولي ليتطهر المجتمع بكامله من كل شر كامن فيه لاجل خلاصه ووضعه على طريق الفضيلة والصواب. وعندما تغد القارة بلا شوائب وبلا شرور، لابد من ايجاد قارة اخرى والمضي الى حدود جديدة ونقل كلام الله وتمدين (الآخرين). ان الاطهار هم جند المسيح، والامريكيون هم (جنود الديمقراطية فوق مقاييس العالم) وهكذا وبهذا المنطق تضفي القداسة على الامبريالية الثقافية مسوغاً دينياً.

وعلى الدوام كانت الطهرانية مطبوعة بهذا الهاجس الرسالي، بهذه التدينية التي تتجسد في الخير لمحاربة الشر، وفي ضرورة العمل لحساب ما يعرف بأنه الخير. وبالتالي فأن الطهرانية راسخة في اعماق الحياة اليومية التي يعيشها المجتمع، أي في الشعور الجمعي، فهي ستدفع المجتمع على نحو عميق، وهي لا تزال قائمة وتعمل بفاعلية حتى يومنا هذا لانها اصبحت جزءاً وثيق الصلة بالشخصية الامريكية ونمط حياتها وطبيعة سياستها.

في ضوء ما تقدم، تبرز امامنا ملاحظة جديرة بالتأمل، اذ انها ستكون المؤشر على منهج التفكير الذي حكم السلوك السياسي الاستراتيجي الامريكي منذ النشأة وحتى وقتنا الحاضر. هذه الملاحظة هي، ان الروح الدينية المفعمة بهذا النوع من الايمان هي التي سادت هذا الوطن منذ نشأته الاولى، وما تزال تعصف به في علاقاته بغيره خارج الوطن. فالشعب الامريكي ومن ورائه فلسفته السياسية ومؤسسات الحكم، وبالرغم ما يدعون من حرية العقيدة وفصل الدين عن الدولة، هم الاكثر نشاطاً في الدعوة لمذهبهم الديني السائد حتى بين المذاهب المسيحية المخالفة. ولعل اليمين المحافظ او من يسمون بالمحافظين الجدد، هم خير دليل على صحة هذه الظاهرة في الحياة الدينية الاجتماعية والسياسية الامريكية.

الا ان العقيدة الدينية البروتستاتينية الكالفينية التي يؤمن بها الطهوريون او الآباء المؤسسون لها وجه آخر لعله اكثر اهمية وخطورة من القيم الاخلاقية المبنية على الايمان والفضيلة والعمل الصالح. فالعقيدة الدينية لا تقتصر على هذه المفاهيم ولا تتقيد بحدودها انما رافقها عامل آخر له وظيفة رسالية تبشيرية ذا طبيعة توسعية. بمعنى ان الدين لا يقوم بعملية التوحيد الاجتماعي داخل المجتمع الامريكي فحسب، بل ان امريكياً، وبفضل قيمتها الدينية التي ترتقي بها الى مكانة لا تضاهيها امم وشعوب اخرى، مكلفة بانجاز وظيفة رسالية لنشر هذه القيم خارج حدودها الاقليمية، ومثل هذه الوظيفة هي موضع اختيار الارادة الالهية التي لا دخل للارادة الانسانية فيها سوى الانصياع لها والالتزام بمشيئتها. فثمة اعتقاد راسخ وقناعة سائدة في المجتمع الامريكي، وخصوصاً على مستوى رؤسائه، تذهب الى ان الدولة الجديدة هي من اختيار الرب، وان الشعب الجديد هو شعب الله الذي اختاره بعناية فائقة ضمن خطة الهية مدبرة للكون[2].

ان هـذه الفكـرة المرتكـزة علـى مفهـوم (الارادة الالهية) او (الخطة الالهية للكون) سيكون لها شـأن كبـير في صياغة البنـاء الفكـري الثقـافي الديني للمجتمع الامريكي منذ نشأته وحتى وقتنا الحاضـر. كمـا سـيكون لهـا تـأثير واضـح علـى السياسة الرسمية وتوجيه السلوك السياسي الخارجي للولايات المتحدة الامريكية نحو العالم الخارجي. كما ان هذه الفكرة على قدر كبير من الاهمية لما لها من خاصية التعريف بالعوامل المكونة لصورة الامريكيين الذاتية وادراكها لشخصيتهم وما تمتاز بـه مـن أسـلوب في التعامـل مـع الآخـرين. فقـد اعتقد المهاجرون الاوائل والطهوريون بوجود خطة الهية شاملة للعالم، وان هذه الخطة هي من تدبير الارادة الالهية يلعب فيها الطهوريون بهجرتهم الى العـالم الجديـد دوراً مهمـاً وان امريكيـا كانـت موجودة في عقل الله لاهداف محددة منذ بداية الخلق.

ويعتقـد الطهوريـون البروتسـتانتيون الـذين غادورا اوروبا واستوطنوا العالم الجديد انهم شعب الله المختار، اختارتهم العناية الالهية للخلاص والهرب من فسـاد العـالم القـديم وآثامـه لانشـاء مملكـة الله علـى الارض. وهم بذلك يشبهون انفسهم بقبائل اسرائيل في هروبهـا مـن مصـر الى ارض كنعـان. ويعتقـد الطهوريون ايضـاً، انهم على علاقة تعاهدية مـع الله، وهـم شركاء في تنفيـذ مهمة حـددها الله لهـم في هـذا العـالم. وان هـذه الشـراكة التعاهديـة مـع الخالق تشمل مهمة خطيرة عاجلة وهي تنوير بقية دول العالم وهدايتها وانقاذها من الجهل والظلام. كما ان هــذه الشــراكة التعاهديــة جعلــت مــن الشــعب الامريكي الطهوري مجتمعنا دينياً يمثل كنيسة القديسين الارضية المرئية وبالتالي فأفراد هذه الكنيسة هم مواطنوا مملكة الله المرتقبة.

اذن احتـل مفهـوم (الخطـة الالهيـة) موقعـاً مركزيـاً في معتقـدات وسـلوك المجتمع الطهـوري الاول ورسخ الاعتقاد بأن يد العناية الالهية تتحكم بأعمالهم ومصيرهم كمـا تـتحكم بجميـع الامـور والاحـداث في هـذا الكـون. ويـذهب المؤرخ الـديني للامـة الامريكيـة (كوتون ماذر) الى ان الله اصدر اوامر الى المؤمنين من شعبه من الامة الانكليزية وجعلهم يقررون بالاجماع ان يهـاجروا الى العـالم الجديـد (امريكـا) وكـان هـدفهم الوحيد هو حمل مسؤولية تنفيذ قضاء الله. ومما جعل هـذا المفهوم، مفهوم الخطة الالهية اكثر عمقاً وتـأثيراً لدى المستوطنين الاوائل هو انهم والاجيال التي تلتهم، اعتقـدوا جلزمين ان لهـم دوراً ومكانـاً مركـزيين في هـذه الخطـة، حـتى ان الله انتقـاهم بالـذات لتنفيـذ ارادتـه في هذه الخطة. لذا نجد ان الحجاج الطهوريين، والاجيال الامريكيـة التاليـة، اكثـر مـا يشـبهون انفسـهم بـأنهم (الشـعب المختـار) لانجـاز (رسـالة عالميـة) وفـق خطـه الهية لصياغة الكون وتصحيحه[3].

هذه الافكار والمعتقدات تم تبينها منذ وقت مبكر على مستوى الرؤساء الامريكان، فالرئيس الاول (جورج واشنطن) وضح فكرة التدخل الالهي والعناية الالهية بالقول (ما من شعب مدعو اكثر من شعب الولايات المتحدة الى شكر الله وعبادة اليد الخفية التي

تقود امور الناس. فكل خطوة جعلتهم يتقدمون على طريق الاستقلال الوطني تبدو موسومة بسمه التدخل الالهي). كما كان هناك كتاب ومؤرخون امريكان بالغوا في تمجيد الشعب الامريكي المختار من قبل الله. فالمؤرخ الامريكي (دانيال يورستن) يرى (ان الشعب الامريكي هو تمجيد لانجاز الله، وان امريكا هي الفردوس الموعود على الارض من قبل الله). ويضيف في مبالغته لمكانة الشعب الامريكي فيقول (انه تجسيد لارادة الله لبناء مجتمع جديد واصيل... ولم يكن شعب اكثر يقيناً من سيره على الصراط المستقيم من الشعب الامريكي الذي هو شعب الله، وكل خصم له يعد عدواً لله). اما الكاتب (وليام مستوغون) فقد كتب عام 1687 (ان امريكا امة جرى اختيار مواطنيها بعناية من قبل الله). وهناك فكره مماثلة أفصح عنها (جونسون سوليفان) عام 1845، يقول فيها (ان الثورة العالمية التي ستبتكر مجتمعاً جديداً سيولد في الولايات المتحدة بأمر من الله الذي يقف الى جانب الامريكيين).

والولايات المتحدة في نظر الرئيس الامريكي (جون آدمز 1826-1735)، (هي المكان المخصص لتحقيق سعادة الجنس البشري. وفي نظر كل الامريكيين ان امريكا هي هذا المكان المحظوظ، هذه الارض المحمية بالعناية الالهية، والتي تنزاح نحوها الحضارة، وهي مرحلة انتقالية نحو العالمية، نحو تحرير الارض بكاملها). ويذهب الرئيس (بنيامين فرانكلين) الى اعتبار ان امريكا (معززة بأيديولوجية لن يزعزعها شيءابداً. وان الولايات ستكون مولدة لمجتمع عالمي. فالمؤسسات والعادات والمبادئ الامريكية مخصصة للتطبيق في كل مكان ولمحو ما بين البشر من اختلافات اينما كانوا (وربما كان هذا التبشير هو الاول لمفهوم العولمة وفق قياسات النموذج الامريكي). ان امريكا النموذجية هي في رأي مواطنيها اعلى كعباً من الامم الاخرى، وهي بذلك مدعوة الى ملء مركزها نهائياً).

ولا يخرج الرئيس الامريكي (بوش الابن) عن هذه القاعدة التي وضعها اسلافه من رؤساء الولايات المتحدة عندما يقول (لا يمكن للمرء ان يكون رئيساً لهذه البلاد من دون قناعة اننا الامه الوحيدة الخاضعة لاوامر الله)[4]. وكانت هذه الافكار في صلب عقيدة الطهورين التي تقرر انه: لئن كان الله قد سمح بأن يجتمع في ارض امريكية شعب من رجال ونساء متميزين، فان ذلك قد تم بفعل الارادة والعناية الالهية التي منحتهم (رسالة حكم العالم) ذات يوم.

وهكذا، قبل وبعد تأسيس الدولة الامريكية عام 1776، يفسر اجماع الخطابات:- ان امريكا، الديمقراطية، الانموذج الذي اختاره الرب، لا يمكنها الا ان تكون المرشدة للطريق الذي يجب السير عليه، والقائدة لموكب أمم الكون. ولم ير الآباء المؤسسون، ثم من بعدهم النخب السياسية والفكرية والثقافية والدينية والعلمية في كل العصور، ان الامور يمكنها ان تكون مغايرة لهذا الاعتقاد.

اذن كان الطهوريون الامريكيين، ومنذ أيام الاستيطان الاولى، يؤمنون بفكرة غيبية غامضة لا تقبل الا التفسير الاحادي. ويعد الطعن بها ضرباً من الكفر

والخروج عن نصوص الكتاب المقدس. هذه الفكرة، والتي سيكون لها شأن كبير في ترسيخ قناعات ثابتة في عقلية المجتمع الامريكي، تؤمن بمفهوم (التدبير الالهي للكون) والذي يذهب الى ان الله ضمن تقديره وتدبيره لخطة الكون والتاريخ، وضع لامريكا مهمة مقدسة خاصة بها. بمعنى ان هناك تصميم الهي في صياغة الكون، وان امريكا، وفق هذه الصياغة مكلفة برسالة ربانية لان تكون قائدة لهذا العالم ويقول (وينثروب هدسن) تأكيداً لهذا الاعتقاد (كان كل مواطن انكليزي قد تعلم منذ طفولته ان ينظر الى التاريخ على انه مقرر مسبقاً بالقدر الالهي)، لذلك لم ينظر احد الى الاستيطان في امريكا على انه امر عادي، فمنذ عام 1613، اعلن المؤرخ الامريكي (ويليم سترتشي)، (ان الله قد حفظ أمريكا مخبأة لهدف في ذهنه وان الذين انشئوا المستوطنة الصغيرة في فرجينيا لم يكونوا يعملون الا كوسيلة لتنفيذ ارادة الله وتدبيره، وان الله قرر اكمال مهمتهم في سعيهم الى اتمام تحقيق خطته للكون التي يوجه التاريخ كله نحوها)[5].

هذه المعتقدات الدينية لعبت دوراً كبيراً في خلق نوع من التلاحم الاجتماعي في المجتمع الامريكي وايجاد رباط محكم ساعد على توحيد ذلك المجتمع واعانه كثيراً على التغلب على النزعات الانفصالية والمصالح الاقليمية. كما اضفت هذه المعتقدات الدينية مشاعر واهداف موحدة على المجتمع الامريكي بكل مكوناته اللا متماثلة الا المعتقدات الدينية، فأعطته ولاءات مشتركة واهدافاً واحدة وشجعت على بروز قيادة موحدة للامة، فكان العامل الاقوى في توحيدها، رغم ان تعبير (الامة) بعناصره البنائية التاريخية-الثقافية ودلالاته الميثولوجية لا ينطبق كثيراً على الامريكان الذين ينتمون الى اعراق وثقافات وأصول مختلفة ومتنوعة.

ان تعبير (امة واحدة في طاعة الله) احتل مساحة كبيرة في الخطابين الديني والسياسي في الولايات المتحدة منذ منتصف القرن العشرين وعلى نحو مكثف. فنشيد قسم الولاء الامريكي، والخطب السياسية المعدة لاستلام منصب الرئاسة والتي ألقاها جميع الرؤساء الامريكيين، حرصوا جميعهم، وبشكل تقليدي، على ذكر فضل الله وبركاته التي احاط بها الامة الامريكية، وان الامة الامريكية والجمهورية الامريكية هما جزء من (تصميم التدبير الالهي). بل ان الامر تجاوز ذلك ليسمح لدولة تؤمن بالحياة المادية ان تضع حتى على عملتها الوطنية عبارة (نؤمن بالله GOD WE TRUST IN).

ان الملاحظة التي تستدعي الانتباه وتثير نوعاً من الغرابة هي ان المجتمع الامريكي يجمع ما بين خاصتين متناقضتين يصعب التوفيق بينهما. فهو مجتمع علماني يفصل بين الدين والدولة، ويمنع دستوره، الدستور الامريكي وتعديلاته، اعتماد الدولة ديناً معيناً، ويمنع ايضاً تداخل صلاحيات وممارسات الكنيسة والدولة، الامر الذي دفع الى الاعتقاد ان امريكا امة علمانية بحته لا يؤثر الدين فيها على سياسة الحكومة، ولا تتدخل الحكومة بالشؤون الدينية. الا انه، أي المجتمع الامريكي، هو ايضاً مجتمع متدينين يشكل المتدينون فيه نسبة تتجاوز 80%،

تسيطر عليهم معتقدات دينية تثير تساؤلات كتلك التي اثارتها النظريات الالهية التي تربط علاقة الدين بالدولة والتي قوضت اساس شرعيتها النظرية الديمقراطية (افكار لوك وهوبس وروسو ومنتسكيو)... ومع ذلك، كانت وما تزال المعتقدات الدينية مؤثرة بشكل واضح على عقلية المجتمع الامريكي مما اتاح للنخب السياسية الحاكمة تمرير سياسات تحت غطاء (العناية الالهية) و(الاختيار الرباني لهذه الامة ان تقود العالم) والى ما غير ذلك....

وفي الواقع، ان ما اعطى المجتمع الامريكي (ومنذ بداية تشكله من سكان متعددي الجنسيات والاعراق، سواء كانوا من انكلترا او من اسكتلندا، او المانيا، او من أي مكان بالعالم، وحتى وقتنا الحاضر)، ان ما اعطاه نظرة واحدة متفق عليها ولا خلاف حولها، هو هذا الادراك الايماني والتتابع التكراري في الخطاب الديني-الثقافي في ان الامريكان، وبعد استقرارهم في ارض اختارها الله لهم، انهم يمثلون اختياراً الهياً بعد اجتماعهم وتواجدهم في ارض واحدة، وانهم مكلفون برسالة رسمها الله لهم، وانهم جميعاً مدعوون الى مهمة مقدسة منحها الله لهم. وكما يذهب (لايمان بيتشر) كان الجميع يحملون اعتقاداً بأن (الولايات المتحدة قد أسست في وضع يمكنها من التمتع بالحرية الدينية وان ذلك كله كان جزءاً من خطه الله لاعطاء العالم نموذجاً يقتدى به)[6].

هذه الخاصية المركبة للمجتمع الامريكي، الذي يجمع ما بين علمانيين ومتدينين، يمكن وصفها بأنها رابطة لدين يمكن وصفه او تسميته بـ (الدين المدني) الذي يلتقي عنده الجميع وهذا (الدين المدني) كما يصفه فؤاد شعبان، هو نوع من القناعة الشعبية لا تختلف نهاياتها الفكرية-الايمانية عند العلمانيين والمتدينين. هذا الدين المدني يجمع معظم الامريكيين ضمن مظلة معتقدات واحدة لا تنتمي الى أي مذهب او كنيسة بعينها. هذا الدين المدني، كما يقول (روبرت بيلا) كان وما زال نقطة التقاء بين اعمق المعتقدات والالتزامات الدينية والفلسفية الغربية، وبين المعتقدات الشعبية لدى عامة الامريكيين. كما يعرف (روبرت بيلا) الدين المدني بقوله: ان الدين المدني في افضل حالاته هو الادراك الاصيل للحقيقة الدينية الكونية السامية كما تظهر للمرء في التجربة الامريكية، وهو بذلك يشكل القاسم المشترك للاكثرية المعتدلة من الامريكيين على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم، وحتى الذين لا يمارسون الفروض والطقوس الدينية. وهو ايضاً دين امريكي بحت يوجد على مستوى الادراك الشعبي جنباً الى جنب مع جميع المذاهب والكنائس، وهو ايضاً يملك بعداً روحياً خاصاً به ومستقلاً عن المذاهب الاخرى. وفي هذا الدين الشعبي يبقى مفهوم (الله) في موقع مركزي لا خلاف عليه مهما اختلفت المعتقدات الشخصية للافراد. وان الجميع يقبلون به كأمر من المسلمات. وحتى على مستوى رؤساء الجمهورية الامريكية، فأنهم حرصوا جميعاً منذ واشنطن وحتى بوش الابن على ان تشتمل خطبهم وتصريحاتهم

على هذا المفهوم الذي هو موضع قدسية لدى الجميع، كما تستمد اوربا منه ايضاً قدسيتها ومكانتها الخاصة بين الامم باعتباره هبه من الله.

وهكذا، بقيت العلاقة بين الدين والسياسة في امريكا، على مر الزمن، علاقة وطيدة بشكل واضح. والمواطن الامريكي، رغم ما يدعو اليه الدستور من فصل الدين عن الدولة، لم ير أي تعارض او نزاع بين الاثنين. وهذا الوضع الفريد يختلف كثيراً عما جرى في مناطق وبلدان اخرى من العالم حيث يتداخل الشأن الديني بالشأن السياسي الى حد الصراع والاحتراب الذي لا يعرف نهاية يستقر عندها لتأكيد ايهما اكثر شرعية ومشروعية في تحديد مرجعية العمل السياسي، هل هي السلطة الزمنية التي يفترض ان يكون مصدرها الشعب، او السلطة الروحية التي يكون مصدرها ارادة تفوق وتسمو على ارادة البشر.

وعليه كان من السمات التي اتصف بها الفكر السياسي الامريكي منذ البداية، انه رغم استقلال الدين المدني عن الدين الروحي، فهما مع ذلك مرتبطان بعلاقة وثيقة، فكلاهما، كما اعتقد الامريكيون، يقعان ضمن التدبير الالهي للبشرية. كما ان رؤاهما للعمل السياسي والخلاص الديني غالباً ما اختلطا معاً ودعم كل منهما الآخر. فالعمل السياسي الذي يتوافق مع الارادة الالهية، والذي لا يخرج عن خطه الله التدبيرية للكون، يقود الى الخلاص الديني المتمثل بما يعتقد انه اقامه مملكة الله في الارض.

هذا المزج بين التفكير الديني المدني والتفكير السياسي عمل على تطويع الدين لاهداف واغراض سياسية، فأصبحت قضية الحرية الامريكية هي قضية الله (المزج بين ما هو سياسي وديني). ومثل هذا المفهوم يسهل علينا ان ندرك وعلى سبيل المثال المغزى الحقيقي لتصريح (جون اشكروفت) الذي اصبح وزيراً للعدل فيما بعد، في خطاب القاه عام 1999 في جامعة (بوب جونز) المسيحية اليمينية والذي قال فيه (لا يوجد في الولايات المتحدة الامريكية سوى ملك واحد هو الملك يسوع المسيح القادم من السماء يتربع على عرش مملكته الالفية في الارض).

ان التداخل بين ما هو ديني وسياسي يمكن ان نلمسه في تطوير فكر الطهوريون. ففي بداية تشكيل فكرهم الديني كانوا يركزون على فكرة تنفيذ ارادة الله في هداية الامم المسيحية تمهيداً لنزول مملكة الله. ورغم ان هذه الفكرة ما تزال باقية، الا ان الاولوية بعد تأسيس الدولة الامريكية اصبحت تتركز في وضع امريكا كمنارة للحرية والديمقراطية يستهدي بها العالم أجمع الى مملكة المسيح السياسية.

كان هدف الطهوريين دينياً ، ليصبح بعد ذلك هدفاً سياسياً ، يتمثل بنشر مبادئ الديمقراطية والحرية في العالم. وكان هدف الامريكيين في فترات الاستيطان الاول تأسيس (مملكة الله المباركة)، واصبحت مهمة الدول المستقلة تأسيس مملكة الله

العظيمة الامريكية نموذجاً يفترض ان تقتدي به بقية الامم الاخرى.

وهكذا، فأن الخطاب السياسي الامريكي الحديث اصبح يستعمل بتكرار عبارات ورموز الكتاب المقدس فكل خطاب القاه رئيس امريكي في حفل استلامه لمنصبه يشمل فقرة او اكثر تعبر عن الايمان العميق بفضل الخالق على امريكا وعن الشكر له على نعمته ورعايته، وان يعم هذا النموذج على دول العالم الاخرى. ومنذ ايزنهاور وحتى الآن، صرح الرؤساء بدور الدين في حياتهم وحياة الامة. هذه كلها صفات وفضائل خص الله بها امريكا دون غيرها من الامم، وهذا هو مصدر الاعتقاد بمكانة امريكا الخاصة في خطة الالهة[7].

ومما تجدر الاشارة اليه. ان هذه النظرة الدينية وظفت باستمرار من قبل السكان النازحين الى القارة لتسويغ وتبرير المشروع الامريكي الاستيطاني في ارض لا تعود ملكيتها لهم وفي تعاملهم الوحشي مع سكان البلاد الاصليين (الهنود الحمر)مما ادى الى ابادة معظمهم فضلاً عن الاستيلاء على ارضهم. كما استعمل الامريكييون هذه المبادئ والافكار الدينية في صياغة مفهوم (القدر المبين) بالتوسع الاستيطاني للاستيلاء على كل الاراضي غرباً وشرقاً، شمالاً وجنوباً كما استعملواهذا المفهوم ايضاً في المشاريع التبشيرية التي تعتبر الآخرين، داخل الحدود وخارجها، منحطين ومتأخرين وتعتبرهم حقلاً مشروعاً (للتغيير والهداية).

ولابد من الاشارة ايضاً ان الدعوات الاولى حول مفاهيم (القدر الالهي) و(عظمة امريكا) و(الرسالة الالهية المكلفة بها امريكا حيال العالم) وغيرها، ينبغي ان ينظر اليها على أنها غير مرتبطة بمرحلة تاريخية معينة، انما هي مكلفة بانجاز وظيفة محددة ما تزال فاعلة حتى يومنا هذا. وهنا تكمن خطورة هذه الدعوات. ذلك انها تضع امريكا دائماً في حالة تحد ومواجهة مع الآخرين لفرض ارادتها عليهم. ومثل هذا الخطر كان قد نبه اليه العديد من المفكرين والسياسيين في امريكا ذاتها حتى قبل انهيار الاتحاد السوفيتي كما ذهب استاذ التاريخ (روبرت بيلا) منذ عام 1967 الى القول (ان القضية ليست قضية توسع استعماري فقط، بقدر ما هي ميل الى الهيمنة على جميع الحكومات والاطراف في العالم التي تدعم سياستنا ومصالحنا الآنية او التي تحتاج الى مساعدتنا، حيث نسارع الى استعمال مفاهيم الديمقراطية وقيم الحرية وحقوق الانسان... وهكذا تصبح الدول التي تقف في صفنا في وقت معين انها دول تصطف مع العالم الحر وقوى الخير)[8].

هذا التفكير الذاتي بالعظمة وحتمية التفرد يرافقه امر خطير هو، انه لكي يستمر هذا التفكير النمطي وتفعل وظيفته لابد من وجود خصم، او افتعال هذا الخصم او انتاجه. في البداية، كان الخصم يتمثل بكل شيء يقف امام مشيئة الله في ان تكون امريكا هي الارض التي اختارها للطهورين او الآباء

المؤسسين. وبعد انجاز هذه المهمة، جاءت مسألة التوسع لنشر (الفضيلة الامريكية) و(النموذج الامريكي) الى العالم وكان الخطر يتجسد في كل من يقف امام هذه الرسالة[9]... وبعد الحرب العالمية الثانية تمثل الخصم بالشيوعية والمعسكر الاشتراكي والقوى المتحالفة معه، جميعهم وصفوا بأعداء الحرية والديمقراطية وغيرها من القيم التي يدعيها الامريكيون لانفسهم،واتخذ الخطر تسميات عده (امبراطورية الشر)او(محور الشر)او(جيش الشيطان).

وبعد غياب الخطر الشيوعي، والخطر الاحمر، كان هناك الخطر الاخضر او خطر الاصولية الاسلامية وعندما لا يتوفر خصم بهوية معينة، اولا يمكن تعريفه بموقع جغرافي محدد او تجمع انساني بعينه، يوصف (مصدر الشر) بأوصاف اقل تحديداً ولكن اكثر عمومية وتعقيداً . ويكون كفاح امريكا، كما نرى اليوم، ضد (الارهاب)و(الاشخاص الشريرين)و(الدكتاتورية والدكتاتوريين) و(اولئك الذين يكرهون الحرية ويكرهون طريقة حياتنا). وتمتد مساحة هذه الكفاح وتتسع بفضل عمومية هذا الخصم فتشمل كل القوى (التي تكره الحرية والديمقراطية وقيم الخير)، او التي تدعم الارهاب او تؤويه او حتى التي تسكت عنه. وبهذا، يعطي الامريكيون انفسهم، ضمن هذا الاطار الخير والمعاد للشر، الحق لضم أي طرف يريدون الى هذا العدو، ولا يبقى امام الآخرين في العالم الا ان يكونوا (معنا) اويقفوا (ضدنا) مع قوى الشر. ويصبح من الضروري في هذه الحالة اللجوء الى المجابهات العسكرية التي تصور على انها (دفاع عن قيم الخير التي تتعرض للخطر) وعن (العالم الحر) ضد من يتهدد هذا العالم.

ثانياً: المحافظون الجدد، فكر تسلطي يحكم العالم:

يمثل المحافظون الجدد، او كما يسمون بـ(اليمين المسيحي المتطرف)، حركة فكرية متشددة نشطت بشكل ملحوظ منذ العقد الثاني من القرن العشرين، الا ان جذورها الفكرية مستمدة من الحجاج، او الآباء المؤسسون، او الطهوريون الاوائل الذين اعتنقوا البروتستامتية الكالفينية وشكلوا البذرة الاولى للمجتمع الاستيطاني في امريكا. والمحافظون الجدد، باعتبارهم بروتستانتيين وكالفنيين، يؤمنون بالافكار الاصولية وبالعهد القديم والجديد من الكتاب المقدس الذي يتضمن وفق معتقداتهم، تنبؤات ستتحقق عاجلاً ام اجلاً، ضمن خطة الهية للكون. كما يعتقدون بالافكار التدبيرية والتي تذهب الى ان الاحداث مدبرة بفعل الارادة الالهية. هذا التيار الفكري الديني المسيحي-اليميني المتطرف والملتزم بحرفية الكتاب المقدس ظهرت بوادره في امريكا في العقد الثاني من القرن العشرين وفي اوائل القرن الواحد والعشرين، ووصف قادة هذا التيار انفسهم واتباعهم بالاصوليين بانهم يعودون الى اصول الدين، بما في ذلك النصوص الدينية وتعاليم المسيح وتلاميذه الروحية والاخلاقية والاجتماعية. واعتبروا ان الديانة البروتستانتية بوضعها الحالي قد خرجت عن سياقها

المطلوب واخذت تشوه الدين الصحيح لذا ينبغي الرجوع الى عصمة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد والى التفسير الحرفي لنصوصه باعتبارها وحي من الله او الروح القدس. لذا فهم يدعون الى القراءة الحرفية للكتاب المقدس ودقة النبؤات المقدسة بكل تفاصيلها، وهم يؤمنون بأن هذه النبؤات سوف تتحقق على الارض. كما يؤمنون بحتمية الصراع بين قوى الخير (جيش المسيح) وقوى الشر (جيش الشيطان)، وان الخير سينتصر على الشر في معركة (هرمجدون).

ينطلق الفكر النبوئي الذي يؤمن به اليمين المسيحي، او المحافظون الجدد، من مبدأ اساسي هو ان الكتاب المقدس بجميع اسفاره وكتبه هو كلام الله المنزل، لذا فهو معصوم بكلامه وحروفه من الخطأ. كما ان النبؤات التي جاء بها هي الاخرى تتميز بعصمتها، فقد جاء في كتاب بطرس (1:21) (النبؤة لا تصدر ابداً عن ارادة البشر، ولكن البشر يتحدثون بوحي من الله. وكان هذا الوحي حمله اليهم الروح القدس). كما جاء في قاموس الكتاب المقدس (الكتاب المقدس هو كلمة الله في كلمات الانسان) وان (الكتاب المقدس هو نفس الله). ويشير قاموس الكتاب المقدس (الذي يربط بشكل تلقائي بين مفاهيم الكتاب المقدس برموز وتعابير لها مكانة دينية–روحية–قيمة عند اليهود والحركة الصهيونية مثل، اسرائيل، وكنعان، وارض الميعاد، شعب الله المختار) يشير القاموس الى عبارة (اراضي الكتاب المقدس) ويعتبر ان المقصود بها (اسرائيل) وان الله اعطاها كوطن لشعبه المختار. وهنا يكون (الكتاب المقدس) هو حلقة الربط بين اليمين المسيحي واليهود باعتبارهم شعب الله المختار، وان (اسرائيل) هي الوطن الذي منحه الله لهم باعتبارها تمثل ارض الميعاد وان تأسيس دولة لليهود في ارض الميعاد سيمهد للمجيء الثاني للمسيح. بمعنى ان عودة اليهود الى ارض الميعاد التي وعد بها الرب، ومن ثم تأسيس دولة فيها تضمهم (كما جاء في الكتاب المقدس) هو الشرط الاساس لظهور المسيح المخلص، الذي سيملاء الارض عدلاً وسلام.

من هنا، نجد ان اليمين المسيحي يربط ربطاً مباشراً، استناداً الى حرفية الكتاب المقدس، بين يهود اليوم ودولة اسرائيل، ثم يطبقون نبؤات الكتاب المقدس وخطة الله بأكملها على الاحداث المعاصرة التي تتعلق بأسرائيل بالدرجة الاولى. وفي ضوء عملية الربط هذه بين اليهود ومكانتهم في الكتاب المقدس، وتفسير النبونيين كما ورد فيه من وعود الرب لليهود بأرض الميعاد، وكونهم شعب الله المختار، يمكن ان نفهم الاسباب الحقيقة لدعم اليمين المسيحي لدولة اسرائيل ولنشاطها التوسعي في المنطقة العربية. اذ تعتقد هذه الفئات اليمينية المسيحية اعتقاداً راسخاً بأن دولة اسرائيل السياسية هي دون شك ارض الميعاد التي وعد الرب بها شعبه المختار كما جاء في الكتاب المقدس بنوئته وتفسير نصوصه الحرفية. وترى هذه الفئات في انشاء دولة اسرائيل تحقيقاً لجزء رئيسي من خطة الاله للكون ولنهاية الزمان التي ستتحقق بمجيء المسيح.

وهكذا نجد، انه منذ ان تأسست دولة اسرائيل السياسية في الاراضي المقدسة دخل اليمين المسيحي

المتطرف حلبة السياسة الخارجية، ومارس ضغوطاً مستمرة على الادارات الامريكية المتعاقبة لدعم الدولة اليهودية ومخططاتها. وقد صرح معظم قادة اليمين المسيحي المتطرف وكتبوا عن ان قضية اسرائيل هي قضية امريكا، وانهم بالاضافة الى اعتقادهم بأن لامريكا مصالح حيوية واستراتيجية في دعم اسرائيل، يؤمنون بأن اسرائيل هي الجزء الاساس من خطة الله للكون، وان امريكا موكلة بمهمة مقدسة لدعم اسرائيل تمهيداً لتحقيق بقية نبوءات آخر الزمان بعد ان تأسست دولة اسرائيل في ارض الميعاد.

ان الخلاصة التي نريد الوصول اليها، ان العقيدة الدينية للمحافظين الجدد قائمة على الايمان بفكرة التدبير الالهي للكون، او ان هناك خطة مدبرة للكون وهذه الارادة تسير الاحداث من خلال اختيارها لاشخاص يمارسون وظيفة تتحدد بترجمة النبوءات الى ارض الواقع، والتي من شأنها ان تعجل بالظهور الثاني للمسيح (كما يدعي بوش الابن في ان الرب اختاره لاداء مهمة مكلف بها) وان المجتمع الانساني تحكمه ارادتان، ارادة الخير، وارادة الشر. وهاتان الارادتان هما في حالة صراع سينتهي بأنتصار ارادة الخير، التي يتزعمها الفكر المسيحي اليميني بدعاته وانصاره ورموزه السياسية.

الا ان الملاحظة الجديرة بالانتباه هي، انه على الرغم من ان هذه الافكار والمعتقدات الدينية التي تبناها اليمين المسيحي المتطرف تعود الى منتصف القرن التاسع عشر، الا انها نشطت مرة اخرى في الثمانينات من القرن العشرين وتحديداً في فترة رئاسة الرئيس الامريكي (رونالد ريغان) لتكون بمثابة منهاج عمل في العلاقات الدولية ورسم السياسة الخارجية للولايات المتحدة الامريكية اذ كانت خطبه السياسية غالباً ما تتضمن عبارات مثل (امريكا المدينة على الجبل في مواجهة امبراطورية الشر) وان انتصار الخير على امبراطورية الشر سيتحقق في معركة هرمجدون).

اما في عهد رئاسة بوش الاب، فقد ذكر عام 1992، وبعد حربه على العراق عام 1991، ان احد اصدقائه من رجال الدين الاصوليين نصحه بأن يشن الحرب على العراق، وانه بارك هذه الحرب، وقد عمل بهذه النصيحة. اما بوش الابن فقد كان اكثر ايماناً وتشدداً بالعقيدة الاصطفائية الاستعمارية، وان الله اختار الشعب الامريكي للمباشرة في عملية (خلاص العالم). ويشير الكاتب (مايكل اورتيزهيل)، ان بوش كان مؤمناً بفكرة المجيء الثاني للمسيح ونهاية الزمان، وان الوصية الوحيدة لانقاذ العالم هي ان يستولي عليه شعب الله، وان الشعب الامريكي هو الذي اصطفاه الله ليحكم العالم. وان الاعتقاد الراسخ لدى بوش انه شخص اختاره الله ليعيد الارض الى سيطرة الله.

اما الصحفي (بوب وود ورد) فقد ذكر في مؤلفه (الرئيس بوش في حالة حرب) الصادر عام 2002 ان احداث الحادي عشر من أيلول 2001 أثارت مشاعره الدينية العميقة، وان هذه المشاعر اعطته الحافز لاعلان الحرب. وانه اعلن في الكاتدرائية

الوطنيــة (ان مســؤوليتنا تجــاه التــاريخ اصــبحت واضــحة جــداً : ان نــرد هــذه الهجمــات ونخلــص العــالم مــن الشــر) وعلــق الصــحافي (وود ورد) علــى ذلــك بــالقول (كــان الــرئيس بــذلك يطــرح مهمتــه ومهمــة الامــة كلهــا ضــمن الاطــار العــام لرؤيــا خطــة الله الكبــرى للكــون)[10] . وفــي رأي (هيــل) ان الادارة الامريكيــة خالفــت آراء كثيــر مــن القــادة العســكريين الامــريكيين واســتخفت بــالملايين مــن الامــريكيين وغيــرهم الــذين يعارضــون الحــرب ضــد العــراق. واعتبرت هذه الادارة ان الامم المتحدة لا دور ولا قيمة لها في قرار الحرب، وفي هذا القرار، ليس من المستبعد ان يكون بوش مصمم، بوعي او بغير وعي منه، على تنفيذ خطة الله. ان سياسته العاتية حيال الشرق الاوسط تدل على هذا وعلى انه يعتبر نفسه مكلفاً بمهمة من الله. ويلخص (هيل) الحالة الراهنة في امريكا الآن بالقول، ان التراث اليهودي-المسيحي تزج به عناصر مارقة متطرفة الى الهاوية وتزجنا نحن معه[11] .

وفي مقال كتبه (جاكسون لير) في صحيفة نيويورك تيمز بتاريخ 2003/3/11 وقبل الحرب ضد العراق بسبعة أيام فقط جاء فيه: ان بوش، عندما كان حاكم ولاية تكساس، صرح بأعتقاده ان الله اراد منه ان يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية. وقد اصبح هذا الاعتقاد واضحاً بأنه ينفذ ارادة الله بعد احداث أيلول. وانه صرح مراراً انه يقود حرباً عالمية ضد الشر. وفي سياق الاعداد للحرب ضد العراق قال بوش (لو ادركنا الاساليب والمقاصد الالهية لكنا نثق بها)[12] .

ويصف (جاكسون لير) عقلية الرئيس بوش واعتقاده بأن الله يعمل في كل شؤون الكون، وهو يدعو الولايات المتحدة لقيادة حملة صليبية جديدة في الشرق الاوسط، (ان الامور لا تتحرك بالمصادفة، بل بيد اله عادل وفي)[13] .

وهكذا، فأن الفكرة التي حكمت التراث الديني المسيحي، والتي تقول ان يد الله تعمل بصورة غامضة فوق ادراك البشر، كانت هي السائدة عند الامريكيين منذ ان وطئت اقدامهم ارض العالم الجديد. وقد عمل هذا الادراك،متفاعلاً مع فكرة (القدر المبين)، على دعم سياسة احتلال ارض العالم الجديد بكاملها، كما دعمت سياسة التوسع خارج حدود القارة، لتنتهي اليوم الى الهيمنة العالمية لاقامة الامبراطورية الامريكية، وبما يتوافق مع الغموض الطوباوي لفكرة التدبير الالهي للكون، الذي تضطلع به وبتكليف الهي، الولايات المتحدة الامريكية.

وعلى الصعيد الخارجي، تستمد اطروحة (ضرورة استمرار القطبية الاحادية) و(ادامة الهيمنة الامريكية)، مقوماتها الفكرية من هذه المعتقدات الدينية التي شكلت الاساس الايديولوجي للسياسة الخارجية ومنهج التفكير في رسم استراتيجية الولايات المتحدة الامريكية. فمن اجل تحقيق فكرة (القدر المبين) و(التدبير الالهي للكون)و (خطة الله في الارض)، يجب ان تبقى الولايات المتحدة هي الاقوى عسكرياً ، ويجب ان تحتفظ بحقها في الدفاع عن نفسها، كما يجب ان تبادر بالمعالجات العسكرية-

الاستباقية. ومثل هذا التشديد على ضرورة استخدام القوة يمثل نقطة الدخول الى رحم المنهج المحافظ الجديد الذي يبدي تشاؤماً عميقاً بشأن الطبيعة الانسانية والمجتمع الانساني. اذ على الرغم من انهم يعلنون ان رسالتهم تدعو الى (الحرية والديمقراطية وحقوق الانسان)، الا ان ذلك لا يعدو ان يكون دعوة خطابية الى حد كبير. فالسياسات التدخلية والاملائية، ومحاولات فرض النموذج الليبرالي، حتى لو تطلب الامر استخدام القوة العسكرية، تشكل مفارقة تنطوي على تناقض كبير بين الخطابات السياسية المعلنة والنماذج التطبيقية للسياسة الامريكية على ارض الواقع.

من جانب آخر، تتحدد رؤية المحافظون الجدد للعالم بكثير من الارتياب والشك فالمجتمع الدولي، مجتمع فوضوي تسوده البدائية والتآمر والصراع. انه مجتمع تصارعي وفقاً للنموذج الهوبسي، وتشكل فيه المنافسة العسكرية الدائمة من اجل السيطرة المعيار الاساس. العالم الذي نعيش فيه، من وجهة نظرهم، يستحيل فيه الاعتدال بين مجتمع الامم وتغيب فيه الثقة بين البشر. وبرؤية اكثر تشاؤمية يذهب (كنيث اولمان) وهو من المحافظين الجدد، الى القول (ان الامن قد لا يكون قضية آمنة بحد ذاته، وعلينا ان لا نحاول اقناع الناس ان الامور اخذه بالتحسن)[14] . وكما يذهب (ستيفان هابر) فأن المحافظين الجدد يلتقون حول ثلاث موضوعات رئيسية:-

1. ايمان نابع من اعتقاد ديني بأن الوضع الانساني يعرف بأنه اختيار بين الخير والشر، وان القياس الحقيقي للشخصية السياسية يوجد في استعداد الخيرين انفسهم لمواجهة الاشرار.
2. التوكيد بأن المحدد الجوهري للعلاقة بين الدول هو القوة العسكرية والرغبة في استخدامها.
3. التركيز الاساسي على الشرق وسط والاسلام العالمي بأعتبارهما يمثلان التهديد الرئيسي للمصالح الامريكية في الخارج[15] .

اما رؤيتهم لموضوعات السياسة الدولية، فتكشف عنها دراسة ارسلت الى الرئيس بوش الابن في الايام الاولى من فترة رئاسته الاولى، اعدها مجموعة من المحافظين الجدد ينصحونه فيها ان لا يلتفت كثيراً الى مفاهيم (الاستقرار) و(امكانية تحقيق الامن الدولي) ولو بمضمونه النسبي. وان (العلاقات الحسنة) مصطلح غريب مشكوك فيه. وان مفاهيم (كالامن الجماعي) و(بناء الثقة) و(الحوار) و(الاجماع) كلها مفاهيم لا تعمل الى حد كبير في عالم اليوم[16] . وان عملية السلام في الشرق الاوسط تعتبر مفهوماً غريب يسعى اليه دعاة السلام المرتدون[17] . وفي نهاية الستينات وبداية السبعينات كانت رؤيتهم للمسائل المثيرة للتحديات التي تواجه الولايات المتحدة تنحصر في قضيتين، الاولى، ضرورة الدفاع الثابت عن اسرائيل، وان لا تقدم اسرائيل تنازلات لصالح الفلسطينيين، وان تلتزم (بحقها) في ارض الميعاد. اما القضية الثانية فهي

ضرورة التصدي للاتحاد السوفيتي، دولة الشر ومعقل الفكر الشيوعي. وعلى هذا كانت نظريتهم لسياسة الانفراج تذهب الى انها سياسة تفتقد الى الجرأة والعزم والتصميم، وانها مترددة وواهنة. هذا المشهد اعيد مرة اخرى في التسعينات، حيث كانوا يدعون (نتنياهو)، وبقية القيادات الاسرائيلية، للابتعاد عن سلام اوسلو، والى المزيد من التشدد ازاء المطالب (المفتعلة) للفلسطينيين. اما الخطر الشيوعي-السوفيتي الذي تلاشى في حقبة التسعينات من القرن الماضي، فأنه استبدل بتحد جديد هو الخطر الاسلامي، او الاسلام الاصولي[18].

وفي اطار هذه الايديولوجية البتي يعتنقها المحافظون الجدد يلعب الهاجس الامني دوراً كبيراً في صياغة عقيدة عسكرية تعتنق فكرة الحرب بحماس شديد. اذ يرون فيها الخيار الاكثر منطقية في عالم مضطرب لاتحكمه الا القوة العسكرية التي تنفرد بمتانة بنائها الولايات المتحدة الامريكية. وبقدر التعويل المفرط على القوة العسكرية، بأعتبارها أول اداة، وليس آخر اداة، يلجأ اليها في مواجهة مجموعة واسعة من التحديات السياسية، ثمة شكوك تطرح حول جدوى وفاعلية الادوات غير العسكرية. فالدبلوماسية لا يمكن الوثوق بصدقية نجاحها فحسب، بل ينظر اليها بمثابة قيد متعب للاحادية القطبية الامريكية.

ولا يشعر المحافظون الجدد بالقلق من ان ذلك كله يضع الولايات المتحدة في حالة توتر دائم مع العالم الخارجي، ويجعلها تعيش في مناخ من عدم التسامح مع الغير، بل ان دعاة الايديولوجية المحافظة الجديدة يتحدثون عن الحرب العالمية الرابعة. ذلك انهم يعتقدون ان التحديات التي تواجهها الولايات المتحدة ذات طابع عسكري اساساً وان النصر لا يتحقق الا بالقوة العسكرية وحدها. ومثل هذه الاطروحة تقودنا الى استنتاج منطقي هو، اذا كانت اداة السياسة السائدة هي القوة العسكرية، يكون من الطبيعي ان عقلية هذه السياسة هي البحث عن أعداء.

ان مقولة بوش الشهيرة (من ليس معنا فهو ضدنا) والتي اطلقها في اعقاب تفجيرات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، تعطي توكيداً واضحاً لهذا النمط من التفكير. فأما ان تكون معنا (بكل ما يحمله المعنى من تهميش للشخصية السيادية للآخر، وضمان ولائه وتبعيته السياسية) او ان تكون عدواً لنا (بكل ما ينطوي عليه المعنى من تضاد وتصارع واحتراب). وهذه الحدية في التفسير الاحادي للعلاقات الدولية، مع غياب الوسطية في التعامل الدولي، كانت، وما تزال، احدى اهم عوامل الدفع باتجاه التشدد. فالوسطية تفترض ان يكون هناك طرف معادل لتحقيق التوازن. وبغياب هذا المعادل الدولي لا يوجد هناك توازن. وغياب التوازن يعني انه لا يوجد هناك وسطية، او مواقف مرنة. وهذا بدوره يقود بأتجاه التفرد ويعزز من قناعة التمسك به.

وهكذا بنيت الاستراتيجية الامريكية بعد حقبة الحرب الباردة، وفي عهد المحافظين الجدد، على فكرة الاستعداد الدائم للحافز الخارجي، الذي هو بطبيعته عدواني. والاستعداد الدائم، يعني ان تكون الولايات المتحدة قادرة على خوض غمار الحرب

خارج حدودها الاقليمية. لكن، ماهي طبيعة هذه الحرب؟ انها حرب وقائية تخضع لتقديرات ونوايا سياسية.... انها حرب ليس لها ابعاد نهائية، كما لا يوجد تحديد موثوق به ويمكن الاحتكام اليه لطبيعة العدو الخارجي سوى (الارهاب)، الذي يبقى هو الآخر، من حيث تشخصيه هلامي، واحياناً بلا هوية محددة للتعريف به، فأن الحرب ضده لا يوجد لها تعريف سوى، الحرب على الارهاب، التي تحمل اكثر من معنى في تفسيرها. وبالتالي، فأن النصر فيها، يبقى هو الآخر، بلا تعريف، طالما لا توجد لها نهاية منظورة[19]. اذن، نحن والحالة هذه، امام حالة دائمة من اللا أمن، (رغم مظاهر التفوق في القوة العسكرية الامريكية، التي يفترض بها ان توفر للولايات المتحدة الامن المطلق، او الامن النسبي المقبول والمطمئن على اقل تقدير)، ومبعث هذه الحالة من القلق الامني، اريد لها ان تكون مزمنة، والذي يبعد انه مبالغ فيه احياناً، هو عدو لا تعرف هويته، فضلاً عن انه قادر على ان يتجدد ويتوالد بأستمرار.

هذه الطروحات التي يؤمن بها المحافظون الجدد ويبشرون بها ويدعون اليها، بكل مقوماتها الفكرية-الدينية المرتكزة على عقيدة عسكرية تؤمن لها الحضور الدائم والانتشار العالمي، والتصدي لكل من يعترض عليها، او يحاول عرقلة سبيلها واعاقة مسيرتها حيث يصنفون تحت مسمى (الارهاب) ويعاملون بذرائعية (الحرب الوقائية) و(الضربة الاستباقية) المسندة بأحدث ما توصلت اليه التكنولوجيا العسكرية، كل ذلك يؤشر لنا ان المحافظين الجدد يحملون فكراً تسلطياً يسعون من خلاله لتحكم بمقدرات العالم ومصائر شعوبه[20].

ان استراتيجية الحرب الوقائية والضربة الاستباقية تبدو لنا مثيرة وملفتة للانتباه. اذ اريد بها، من بين مقاصد عدة، استهلال عصر جديد مصمم وفق افكار نخبة قيادية امريكية يمثلهم المحافظون الجدد، تعطى للقوة العسكرية اولوية على بقية الخيارات غير العسكرية. والغاية من وراء ذلك استثمار اقصى ما يمكن استثماره من حالة الانفراد الامريكي، وتوجيه رسالة الى الآخرين مفادها ان الولايات المتحدة هي القوة الوحيدة القادرة على حل مشاكلها حتى وان تم ذلك بعيداً عن مشاركة الآخرين من حلفائها. بمعنى تأكيد وترسيخ مذهب الاستثنائية الامريكية بأمتياز ومن دون منازع. وان الولايات المتحدة تتخذ هذا الموقف بالمبادرة بعمل عسكري وقائي لا لحفظ امنها فقط، وانما للنهوض بمسؤوليتها في الدفاع عن الحرية والانسانية والمبادئ والقيم الديمقراطية ضد العنف والعدوان. فضلاً عن ذلك، تأكيد وتمجيد النزعة الامريكية المميزة التي يضفي عليها (بوش) طابعاً قيادياً لمساعدة الآخرين عندما يقول في خطابه الذي نشرته (النيويورك تايمز) في عددها الصادر في 9 تشرين الاول/ أكتوبر/ 2002) بعزيمتنا سنعطي للآخرين قوة. بشجاعتنا سنعطي للآخرين املاً، وبأعمالنا سنحفظ السلام ونهدي العالم الى زمن افضل...فليبارك الله امريكا).

بهذا الخطاب يبدو ان (بوش) اراد ان يخلق قناعات ترى في الولايات المتحدة، وليس غيرها، الدولة المخلصة للعالم والهادية له على طريق الخير والسلام، ولكي يكتمل هذا الخطاب السياسي، وغيره من الخطابات الاخرى، بأيحائه الديني الذي يجعل من امريكا الدولة-المرجعية-المخلصة والمنقذة لعالم مليء بالشرور، وحتى يأخذ كامل ابعاده بانجاز مهامه الرسالية الخلاصية، فأن المسعى الامريكي ينبغي ان يقترن بفعل عنيف متشدد ينهي كل من يعترض سبيله المحتوم والمقرر بمشيئة الارادة الالهية.

هنا تكون الحرب الاستباقية واحدة من اشتراطات الفعل الاستراتيجي المغذي بالايديولوجية الدينية والذي يراد به، كما يذهب دعاتها، تصفية العالم وتنقيته من ذيول (قوى شريرة) التي خلفها عالم ما بعد الاتحاد السوفيتي. هذه الذيول او القوى ستأخذ فيما بعد تسمية (الدول الارهابية) او (الدول الراعية للارهاب) حتى لا تواجه امريكا عقبات في تعميم مشروعها الامبراطوري.

وهكذا فأن اعتناق امريكا استراتيجية الحرب الوقائية ارسي سابقة بالغة الاهمية وهي انها اعطت امريكا، بسبب من استثنائيتها لفريدة، حقاً تنفرد به لوحدها دون غيرها. فلو جارينا هذا المنطق الامريكي المجرد من الاستثنائية والتفرد، فأن باكستان مثلاً، تستطيع ان تقدم حججاً لمصلحة حرب وقائية ضد الهند، مستبقة ضربة هندية في كشمير. او تستطيع كوريا الشمالية ان تبرر ضربة ضد كوريا الجنوبية مستبقة عملاً امريكياً ضد كوريا الشمالية. كما كان يمكن للعراق ان يبرر ضربة استباقية ضد الولايات المتحدة او حلفاءها مستبقاً ما كان في نهاية الامر نية امريكية معلنة بوضوح لشن حرب على العراق.

ان تمتع امريكا بما لا يحق لغيرها التمتع به من (حقوق) يشكل احد اهم المآخذ والعيوب على السياسة الامريكية عند تعاملها مع غيرها من اعضاء المجتمع الدولي. فالازدواجية والكيل بمعيارين كانا على الدوام مصدر ازعاج وقلق وعدم رضى، ان لم نقل سبباً في اثارة روح العداء ضدها. وهكذا، فأن عجز امريكا عن رؤية واقعها من خلال عدسة الحقيقة والعدالة والمساواة، بل من خلال الحرية والديمقراطية التي تطالب بها، هو السبب الذي يجعل حتى اصدقاءها وحلفاءها يعتبرونها قوة متغطرسة وظالمة في أغلب الاحيان.

---

[1] انظر للتفاصيل: عبد العزيز سليمان، تاريخ الولايات المتحدة الامريكية، دار الفكر العربي، القاهرة 1999، ص32 وما بعدها.

[2] راجع بذلك وللمزيد من التفاصيل: توماس تومسن، الماضي الخرافي للتوراة في التاريخ، ترجمة عدنان حسن، دمشق، دار القدس، 2001، ص23 وما بعدها.

[3] عبد العزيز سليمان، مصدر سبق ذكره، ص27.

[4] باربرا فيكتور، الحرب الصليبية الاخيرة، ترجمة، احسان عمر، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2007، ص7.

[5] أخذت هذه الاقتباسات من المؤلف القيم للاستاذ الدكتور فؤاد شعبان، من اجل صهيون، دار الفكر في دمشق، ط3، 2003، ص7.

[6] نفس المصدر، ص7.

[7] انظر في كل ما تقدم نفس المصدر، ص8.

[8] الاقتباس موجود عند:

Vernon. Lewis Barrington: Main currents in American thought, Harcourt Brace, 1972, p.17.

[9]للتفاصيل راجع:

Lawrence E:Harrison, Culture Matters, HOW Values Shapes human progress, Basic Book, N.Y, 2000, p.27.

[10]نقلاً عن فؤاد شعبان، مصدر سبق ذكره، ص232.

[11]نفس المصدر، ص232-233.

[12]نفس المصدر، ص233.

[13]نفس المصدر، ص233.

[14] **Dan Milbank, The UN on the loos, Commentasry. July August, 2002, p.2.**

[15]انظر:- ستيفان هابر وجوناثان كلارك، التفرد الامريكي:- المحافظون الجدد والنظام العالمي، ترجمة:- عمر الايوبي، دار الكتاب العربي، بيروت 2005، ص20. وكذلك ينظر المزيد من التفاصيل حول فكر المحافظين الجدد، (توني بلير، كونداليز رايز، مارغريت تاتشر) المحافظون الجدد، نقله الى العربية، فاضل جتكر، دار نشر العبيكان، بيروت 2004، ص2 وما بعدها.

[16] **Robert J.Lieber, the Folly of Containment, Commentary April, 2003, pp.15-21.**

[17] **Normanpodhortez, Oslo, The peace mangers return Commentary, October, 2001, pp.33**

[18]راجع:-

Robert J.Lieber, op.cit, p.23.

[19]قارن بهذا المعنى، عصام نعمان، امريكا والاسلام والسلاح النووي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت 2007، ص26 وما بعدها.

[20]انظر للتفاصيل باربارا فكتور، مصدر سبق ذكره، ص21.